أي الفريقين أحق بالعقل؟!

في محاورة القاضي الباقلاني لعظيم الروم درس في الحوار والتسامح.. رفض خلع عمامته وجبته بل وخفيه
العنف في الحضارة الغربية متمأسس.. فقد أهلك الغرب السكان الاصليين وخرب افريقيا عبر تجارة الرقيق

هاني السباعي*

هذه مقالة كتبت ردا على ما جاء في عدد من المقالات ان المسلمين لم يردوا بعقلانية على ما جاء في محاضرة البابا بنديكت السادس عشر في المانيا والتي اثارت ردود فعل واسعة، حيث يحاول الكاتب تقديم رؤية اخرى. والكاتب كتب ردا مطولا اختصرناه، وقدمنا زبدته عملا بحرية الرأي والرأي الاخر وفي المقالة الثانية وجهة نظر مختلفة ترى الأمور بمنظور آخر.

«القدس العربي»

■ بتاريخ 12ـ9ـ2006 ألقى رأس الكنيسة الكاثوليكية البابا بنديكت السادس عشر محاضرة بعنوان (العلاقة بين العقل والعنف في الإسلام والمسيحية) وكان من ضمن ما قاله واقتبسه حبر الكاثوليك (بنديكت) العبارات التالية:

«تداعت هذه الذكريات إلى ذهني عندما قرأت منذ فترة وجيزة جزءا من حوار نشره البروفيسير تيودور خوري، من جامعة مونستر، جرى بين الإمبراطور البيزنطي العالم مانويل الثاني ومثقف فارسي حول المسيحية والإسلام وحقيقة كل منهما خلال إقامته بالمعسكر الشتوي بالقرب من أنقرة عام 1391».

«يبدو أن هذا الإمبراطور قد سجل هذا الحوار إبان حصار القسطنطينية بين عامي 1394 و1402، ويدل على ذلك أن مناظرته كانت أكثر توسعا من مناظرة محاوره الفارسي».

ثم يقتبس بنديكت ما ذكره البروفسور «خوري» المذكور حول الجهاد في الإسلام وربطه بالعنف:

«ففي جولة الحوار السابعة كما أوردها البروفيسير خوري تناول الإمبراطور موضوع الجهاد، أي الحرب المقدسة. من المؤكد أن الإمبراطور كان على علم بأن الآية 256 من السورة الثانية بالقرآن (سورة البقرة) تقول: لا إكراه في الدين.. إنها من أوائل السور، كما يقول لنا العارفون، وتعود للحقبة التي لم يكن لمحمد فيها سلطة ويخضع لتهديدات. ولكن الإمبراطور من المؤكد أيضا أنه كان على دراية بما ورد، في مرحلة لاحقة، في القرآن حول الحرب المقدسة».

أقول: يعني أن القرآن ذكر (لا إكراه في الدين) عندما كان الرسول صلى الله عليه وسلم في مرحلة استضعاف في مكة أي من باب التقية حسب فهم خوري والإمبراطور وبنديكت!! بدليل أنه قال إن الإمبراطور كان على دراية بما ورد في مرحلة لاحقة في القرآن حول الحرب المقدسة. بقصد عندما فرض الجهاد في الحقبة المدنية. يعني البابا دارس وفاهم ويعي ما يقول عكس ما قاله شيخ الأزهر طنطاوي ومن على شاكلته من علماء المسلمين الذي اتهموا البابا بالجهل بالإسلام!!!

ثم ينتقل البابا بنديكت إلى فقرة السب المباشر الذي نقله على لسان الإمبراطور البيزنطي في صورة الموافق والمادح لتحليل الإمبراطور الحقود على النحو التالي:

«وبدون أن يتوقف عن التفاصيل، مثل الفرق في معاملة (الإسلام) للمؤمنين وأهل الكتاب والكفار، طرح الإمبراطور على نحو مفاجئ على محاوره (...) السؤال المركزي بالنسبة لنا عن العلاقة بين الدين والعنف بصورة عامة. فقال: أرني شيئا جديدا أتى به محمد، فلن تجد إلا ما هو شرير ولا إنساني، مثل أمره بنشر الدين الذي كان يبشر به بحد السيف».

أقول: من الذي برأ البتول مريم؟! أليس هو القرآن الذي أوحاه الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم؟!

ويستمر بنديكت في غيه متهما مقتبساً العبارة التالية:

«الجملة الفاصلة في هذه المحاجة ضد نشر الدين بالعنف هي: العمل بشكل مناف للعقل مناف لطبيعة الرب، وقد علق المحرر تيودور خوري على هذه الجملة بالقول: بالنسبة للإمبراطور وهو بيزنطي تعلم من الفلسفة الإغريقية، هذه المقولة واضحة. في المقابل، بالنسبة للعقيدة الإسلامية، الرب ليست مشيئته مطلقة وإرادته ليست مرتبطة بأي من مقولاتنا ولا حتى بالعقل».

هكذا يخلص حبر الكاثوليك إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت بجديد! وأنه صلى الله عليه وسلم (حاشاه) لم يأت إلا بما هو شرير وغير إنساني!! وأن الإسلام دين عنف! الإسلام دين مخالف للعقل.

وانطلاقا من تلكم المقدمة أود أن أعلق انتصاراً لرسولنا الأكرم صلى الله عليه وسلم، وللذب عن دين الإسلام العظيم الذي نحمد الله أن جعلنا مسلمين عبر النقاط التالية، مدخل تمهيدي: الباقلاني وحبر الروم الأعظم. والعنف المقدس في الغرب والتاريخ المخزي.

مدخل تمهيدي: الباقلاني وحبر الروم الأعظم

قد يتساءل البعض ما علاقة القاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني البغدادي إمام المالكية في زمانه المتوفى 403هـ بالبابا (بنديكت) السادس عشر؟! العلاقة أن سلف هذا البنديكت (حبر الروم الأعظم في زمانه) قد طلب إمبراطوره في القسطنطينية من الخليفة العباسي أن يرسل له أحد علماء المسلمين ليناظر الحبر الأعظم للنصارى فانتدب الخليفة العباسي الإمام العلامة الباقلاني ليناظرهم وقد ذكر هذه المناظرة القاضي عياض في ترتيب المدارك وذكرها باختصار أيضاً الذهبي في سير أعلام النبلاء، وأشار إليها ابن خلكان في وفيات الأعيان. وقد كان القاضي أبو بكر الباقلاني أعجوبة زمانه في العلم وقوة الحجة وكان يلقب بلسان الأمة وشيخ السنة، وكان مضرب الأمثال في الذكاء وسعة العلم، وقد استطاع أن يناظر عدة فرق في وقت واحد! حيث قضى على أساطين المعتزلة وكل أصحاب البدع في زمانه! الشاهد من هذا السرد أن هذا العالم لم يتزلف إلى النصارى ويدعوهم إلى ما يسمى بحوار الحضارات الزائف!! بل إن إمبراطور الروم هو الذي سعى وطلب لينا ظرهم في أس عقيدة الملتين؟!

نبذة حول سير المناظرة:

لقد رفض القاضي الباقلاني أن يخلع عمامته عندما دخل قصر الإمبراطور بل إنه أصر على عدم نزع خفيه لما طلب منه ذلك وقال: لا أفعل ولا أدخل إلا بما أنا عليه من الزي! وقال: أنا رجل من علماء المسلمين، وما تحبونه منا ذل وصغار! والله قد رفعنا بالإسلام وأعزنا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وأيضاً فإن من شأن الملوك إذا بعثوا رسلهم إلى ملك آخر، رفع أقدارهم، لا إذلالهم. سيما إذا كان الرسول من أهل العلم. ووضع قدره انهدام عند الله تعالى وعند المسلمين! فما كان من الإمبراطور إلا أن رحب به ووافق على مطالبه وشروطه!

وهذا درس لعلماء المسلمين ولا سيما الذين يتمحكون في الحوار مع الغرب لدرجة أن أحدهم لو طلب منه أن يخلع جبته وعمامته وكل ما يشير إلى هدي ظاهر من لحية وغيرها لاستجاب غير متردد!! بل إن من هؤلاء العلماء والدعاة من على استعداد أن يتنازل عن المعلوم من الدين بالضرورة وقواعد الإسلام الكبرى بزعم التقريب والتحبيب إلى الشريعة الغراء!!

عود إلى مناظرة الباقلاني:

ونظراً لطول المناظرة فإني أنقل بعض المواقف منها على النحو التالي:

الموقف الأول:

قال الذهبي في السير (ج10 ص408) طبعة مكتبة الصفا بالقاهرة: «إن الطاغية (إمبراطور الروم) سأله: كيف جرى لزوجة نبيكم؟ يقصد توبيخاً. فقال: كما جرى لمريم بنت عمران، وبرأهما الله، لكن عائشة لم تأت بولد، فأفحمه».

الموقف الثاني:

جاء في ترتيب المدارك للقاضي عياض (مج2 ص210 طبعة دار الكتب العلمية بيروت): حيث قال له الملك (الإمبراطور) :«هذا الذي تدعونه في معجزات نبيكم من انشقاق القمر، كيف هو عندكم؟ قلت (الباقلاني): هو صحيح عندنا، وانشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رأى الناس ذلك. وإنما رآه الحضور، ومن اتفق نظره إليه في تلك الحال.

فقال الملك: وكيف لم يره جميع الناس؟

قلت (الباقلاني): لأن الناس لم يكونوا على أهبة ووعد لشقوقه وحضوره.

فقال (الملك): وهذا القمر بينكم وبينه نسبة وقرابة؟ لأي شيء لم تعرفه الروم وغيرها من سائر الناس، وإنما رأيتموه أنتم خاصة؟

قلت (الباقلاني): فهذه المائدة (أي المائدة التي نزلت على عيسى عليه السلام من السماء) بينكم وبينها نسبة؟ وأنتم رأيتموها دون اليهود، والمجوس، والبراهمة، وأهل الإلحاد، وخاصة (يونان) جيرانكم، فإنهم كلهم منكرون لهذا الشأن، وأنتم رأيتموها دون غيركم. فتحير الملك».

وهنا استدعى الملك أحد القساوسة الكبار ليتدخل:

قال الباقلاني: «فلم أشعر إذ جاؤوا برجل كالذئب أشقر الشعر مسبله، فقعد، وحكيت له المسألة فقال (القسيس): الذي قاله المسلم لازم، هو الحق لا أعرف له جواباً إلا ما ذكره. فقلت له: أتقول إن الكسوف إذ كان يراه جميع أهل الأرض أم يراه أهل الإقليم الذي بمحاذاته. قال (القس): لا يراه إلا من كان في محاذاته. قلت: فما أنكرت من انشقاق القمر، إذا كان في ناحية لا يراه إلا أهل تلك الناحية، ومن تأهب للنظر له؟ فأما من أعرض عنه وكان في الأمكنة التي لا يرى القمر منها فلا يراه. فقال (القس): هي كما قلت. ما يدفعك عنه دافع. وإنما الكلام في الرواة الذي نقلوه. وأما الطعن في غير هذا الوجه، فليس بصحيح. فقال الملك: وكيف يطعن في النقلة؟ فقال النصراني: شبه هذا من الآيات، إذا صح وجب أن ينقله الجم الغفير، إلى الجم الغفير، حتى تصل بنا العلم الضروري به، ولو كان كذلك لوقع إلينا العلم الضروري به. فلما لم يقع به العلم الضروري به، دل على أن الخبر مفتعل باطل. فالتفت الملك إلي وقال: الجواب.

قلت (الباقلاني): يلزمه في نزول المائدة، ما يلزمني في انشقاق القمر، ويقال له لو كان نزول المائدة صحيحاً، لوجب أن ينقله العدد الكثير، فلا يبقى يهودي ولا نصراني ولا ثنوي إلا ويعلم بهذا بالضرورة. ولما لم يعلموا ذلك بالضرورة، دل ذلك على أن الخبر كذب. فبهت النصراني والملك، ومن ضمه المجلس، وانفض المجلس على هذا».

الموقف الثالث:

قيل إن ملك الروم وعد القاضي الباقلاني بالاجتماع معه في محفل من محافل النصرانية، فحضر الباقلاني وبولغ في زينة المجلس وأدناه الملك منه وأجلسه بجانبه وكان الملك في أبهته وخاصته عليه التاج ورجال مملكته يحيطون به ثم جاء البطرك قيم ديانتهم (البابا في زمانه) فسلم القاضي عليه أحفى سؤال ولنترك القاضي عياض والذهبي يحكيان لنا ما حدث في هذا الموقف الطريف:

«وقال له (الباقلاني): كيف الأهل والولد؟ فعظم قوله هذا عليه، وعلى جميعهم وتغيروا له، وصلبوا على وجوههم، وأنكروا قول أبي بكر عليه (الباقلاني)».

«فقال الملك: مه! أما علمت أن الراهب يتنزه عن هذا! فقال (الباقلاني): تنزهونه عن هذا، ولا تنزهون رب العالمين عن الصاحبة والولد!». انتهى بتصرف.

أقول: هكذا كان العلماء الأفذاذ الذين استعلوا بإيمانهم على الباطل فلم يقتاتوا بعلمهم ولم يعطوا الدنية في دينهم! فكانوا بحق نجوماً في سماء التاريخ.

لقد رمى البابا بنديكت السادس عشر الإسلام بالعنف! ومن ثم لن نرد عليه بالقرآن ولا بالسنة ولا بالنقل من الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام ابن تيمية ولا حتى مناظرات الشيخ أحمد ديدات رحمة الله عليه رحمة واسعة! ولكن من العهد القديم الذي يؤمن به البابا بنديكت الذي يحفل بالكثير من الايات والمواقف التي تشير الى الاتجاه الذي وصف به البابا الاسلام، وهذا ليس محله الان، ولكن يمكن الرجوع الى (سفر التثنية: الإصحاح 20)، و (التثنية: الإصحاح 7، 12، 13) و (سفر حزقيال: الإصحاح 9) و (سفر العدد: الإصحاح 31) لمن اراد الاطلاع، حيث تشير هذه النصوص بشكل واضح للتحريض على القتل والعنف.

ثالثا: التاريخ الدموي المخزي لاوروبا والغرب:

لن نتكلم عن المجازر التي ارتكبت إبان الحروب الصليبية، ولكن نتكلم عن المجازر التي ارتكبت اثناء الحروب الاهلية الاوروبية، والتي نشير الى ما جاء في كتاب («تاريخ الدولة العلية» ص 74) «مذبحة سان برتيلمي»: وهي مذبحة البروتستانت بجميع أنحاء فرنسا ذبحهم الكاثوليك بأمر ملك فرنسا (شارل التاسع) بناء على إيعاز والدته (كاترين دي مديسي) في يوم 24 آب (أغسطس) 1572 واختلف في عدد من قتل في هذا اليوم فأبلغه بعضهم إلى 60 ألفا)»!. يا للهول! في يوم واحد أجداد بنديكت يقتلون من بني جلدتهم البروتستانت ستين ألف نسمة في يوم واحد! ، وكذلك خسائر الحرب العالمية الأولى (1914ـ 1918) حوالى 20 مليون نسمة. أنفقت الدول المشاركة حوالى 4.82 مليار دولار. وخسائر الحرب العالمية الثانية: (1939ـ1945) قرابة 35 مليون قتيل. ونفقات التسلح 2100 مليار دولار. وخسائر الحروب الماضية : 207 ملايين نسمة؛ كان للحرب الأهلية والقومية والاستعمار فيها النصيب الأكبر. أقول: لم يكن للمسلمين في هاتين الحربين ناقة ولا جمل! ولم يكن هناك تنظيم قاعدة ولا ما يسمى بالإرهاب. قال الرئيس الأمريكي وليام ما كينلي الذي أمر بغزو الفلبين سنة 1898 : «نحن لم نذهب إلى الفلبين بهدف احتلالها، لكن المسألة أن السيد المسيح زارني في المنام، وطلب مني أن نتصرف كأمريكيين، ونذهب إلى الفلبين لكي نجعل شعبها يتمتع بالحضارة».! قال ايوهان جالتونج: الأمم الغربية ملك للولايات المتحدة، والولايات المتحدة في حلف مع الله». اما روبرت كروش فقد قال إن رئيسه قال له: لا أريد أسرى أريد إحصاء للجثث. ثم يضيف كروش: لقد كنا نعتبر كل من هو فوق الثانية عشرة مشروع جثة». وفي إيطاليا: «وإلى تاريخ متأخر 1762م كان السجناء تحطم أجسادهم على دولاب التعذيب عظمة بعد عظمة، أو يسحلون على الأرض في ذيل حصان مهموز» (وول ديورانت: قصة الحضارة ترجمة فؤاد أندراوس مج 39ـ 40 ص176).

يقول نعوم تشومسكي في كتابه (الغزو مستمر ص13) عن غزو الأوروبيين للعالم أسفر عن كارثتين لا مثيل لهما في التاريخ: «هلاك السكان الأصليين في نصف الكرة الغربي وخراب أفريقيا حيث تجارة الرقيق سريعاً».

ويرجع تشومسكي السبب الأهم في نجاح الأوروبيين في غزو العالم: «تمكن أوروبا من ثقافة العنف وانغماسها فيها».

لقد كانت مدينة (دكا) عاصمة بنغلاديش حالياً مزدهرة وغنية وكان الأوروبيون يطلقون عليها مانشستر الهند! تشبيهاً بمدينة مانشستر الصناعية في بريطانيا! ماذا حدث لأهلها؟ لقد انخفض عدد سكانها كما يقول تشومسكي بفعل الإرهاب البريطاني من مائة وخمسين ألفاً إلى ثلاثين ألفاً فقط!!

لقد قتل الأوربيون المتحضرون جداً عشرة ملايين إنسان من سكان زائير! يقول نعوم: «وسوف يؤسس تشرشل لمبدأ القصف الكيماوي فيقول: «إن من الصحيح تماماً استخدام الغازات السامة ضد القبائل غير المتمدنة»، وهذا ما فعلوه سابقاً ويفعلونه حالياً في أفغانستان!! فماذا يفعلون هناك، هل يوزعون الحلوى؟ ام أنهم يقذفونهم بأطنان المتفجرات والغازات السامة التي تبيد القرى عن بكرة أبيها! ماذا يفعل الذين يزعمون أنهم أتباع المسيح عيسى عليه السلام في أفغانستان؟! ألم ينشروا العنف والقتل والخراب في البلاد؟! ألم يهتكوا الأعراض ويعيثوا في الأرض فسادا؟! من الذي قتل مليونا ونصف مليون عراقي إبان الحصار الظالم لعاصمة الرشيد؟! أليسوا زعماء الحضارة الغربية المتحضرة جداً؟! من الذي قتل أكثر من مائتي ألف قتيل في العراق منذ الغزو عام 2003م حتى الآن؟

وكتب المؤرخ الإسباني (لاس كاساس) في وصيته قبل موته: «أظن أن الله سيصب غضبه ومقته على أسبانيا بسبب هذه الأعمال الشائنة الإجرامية غير الورعة التي ارتكبت بظلم وبربرية وطغيان،لأن معظم الاسبان اشتركوا في الثروة المغموسة بالدم والتي اغتصبناها على تلك السواحل وسط المذابح والخراب» (تشومسكي: ص58).

واخيرا أين ذهبت عقول هؤلاء القوم! واشير هنا الى ما ورد في إنجيل يوحنا الإصحاح العاشر: «فقال لهم يسوع أيضا الحق والحق أقول لكم إني أنا باب الخراف. جميع الذين أتوا قبلي هم سراق و لصوص و لكن الخراف لم تسمع لهم».!! أيها الحبر بنديكت! أي الفريقين أحق بالعقل؟!

البابا بنديكت السادس عشر

* كاتب ومدير مركز المقريزي في لندن.

ليس دفاعا عن البابا .. ولكن؟

ردود الفعل متسرعة وانفعالية والبابا اخطأ في مناقشته العامة والازمة اكدت هشاشة مفهوم الحوار بين الاديان
اقحام الدين في السياسة يؤدي الي حزازات وسوء فهم والجمع بينهما وضع البابا في وضع حرج

سعيد شحاتة*

■ كنت أعد لكتابة مقالتين احداهما بالعربية والاخرى بالانجليزية عن تلك القضية وقمت بقراءة خطاب بابا الفاتيكان بالانكليزية وما كتب حول ردود الفعل لذلك الخطاب. ووجدت ان البابا كان ينتقد تبرير العنف من خلال الدين وعن الانسجام بين الدين والعقل في الوقت الذي تزداد فيه عمليات العنف باسم الدين. وفي هذا السياق اقتبس من الامبراطور مانويل الثاني من القرن الرابع عشر «ارني ما قد جاء به محمد من جديد وهنا لا تجد الا كل ما هو شر وغير انساني مثل امره بنشر الدين الذي يبشر به بالسيف». واردف البابا القول بأن الايمان يأتي من خلال الروح وليس الجسد. من يريد ان يقود الاخرين للايمان لا بد ان تكون له القدرة على الحديث بصورة جيدة ويقدم الاسباب المقنعة بدون عنف او تهديد. لا يحتاج الفرد الى جيش قوي او اسلحة او اي وسائل لتهديد الانسان بالموت. ان القرارات الرئيسية المتعلقة بالعلاقة بين الايمان والعقل الانساني هي جزء من الايمان ذاته. واختتم بالقول ان النية من خطابه ليس النقد السلبي ولكن توسيع مفهوم العقل وتطبيقاته. وان التصرف بدون العقل مناقض لطبيعة الله.

ردود الفعل على الخطاب

اتخذ رد الفعل على ذلك الخطاب اشكالا عدة تراوحت بين المناداة بقتل البابا وقتل راهبة في الصومال مرورا بالمظاهرات والمطالبات للبابا بتقديم اعتذار عما صرح به واعتبر اهانة للمسلمين. ففي الصومال دعا رجل دين في مقديشيو الى الانتقام من البابا مضيفا ان كل شخص يسيء الى النبي محمد يجب ان يقتل. وقد تم انتقاد ذلك من عدد من الدوائر الاسلامية. وقامت المظاهرات في العديد من الدول الاسلامية وبعض الدول الاوروبية مثل بريطانيا.

ملاحظات نقدية

لدي بعض الملاحظات على الخطاب وردود الفعل وقد أثرت عرض عبارات الخطاب التي اثارت العالم الاسلامي وردود فعل متنوعة حتى يقف القارئ على الحقائق:

التحفظ على الخطاب

أولا: الاعتراض الرئيسي على خطاب البابا هو انه صدر من مسؤول رفيع المستوى له تأثير على الملايين قد يصلون الى بليون كاثوليكي حول العالم. ان حساسية منصب البابا تجعل من الحكمة الابتعاد عن اثارة تلك المسائل الخلافية والتي تثير مشاعر المسلمين. كان يمكن للبابا اثارة تلك النقاط مع رجال الدين الاسلامي في جلسات مغلقة وليست امام العالم اجمع ولا سيما ان هناك عقليات لا تستوعب اهمية النقاش والحوار حول اي قضية تتعلق بالدين. ان البعض يرى ان البابا متعصب ضد الاسلام ويؤيدون وجهة نظرهم انه ضد انضمام تركيا للاتحاد الاوروبي لانه يؤمن بان الاسلام لا يتوافق مع الديمقراطية. ان البابا لم يكن موفقا في عرض تلك القضية الحساسة في خطاب عام وهو يعلم ما سوف يثيره ذلك الخطاب.

معضلة مصادرة الفكر

ثانيا: قد تكون قناعة البابا بناء على قراءاته بأن الاسلام انتشر بالسيف خاطئة ولكنها وجهة نظره وله الحق فيما يعتقد. ان هناك قناعة لدى العديد من المسيحيين ان الاسلام قد انتشر بالسيف في بعض المناطق ولكن ذلك لا يؤثر على تعاملهم مع الاخر. فلا توجد انعكاسات سياسية لمعتقداتهم الدينية. واعتقد انه لاضرر في ذلك. ان اختلافا في المعتقد والرأي لا يجب ان يكون اساسا للكراهية وعدم التعايش. ان المسلمين لا يؤمنون بأن المسيح قد صلب وانه نبي ومع ذلك فما دام ذلك الاعتقاد ـ وان كان يثير مشاعر المسيحيين ـ لا ينعكس على المستوى المجتمعي او السياسي فلا ضرر من ذلك. «لكم دينكم ولي ديني». في احدى التظاهرات في روما رفعت الشعارات التي تثير مشاعر المسيحيين مثل ان المسيح عبد الله. ان المعتقدات الدينية لا يجب ان تقف حائلا امام التعايش بين المجتمعات المختلفة في الاديان او في المجتمع ذي الاديان المتنوعة.

التسرع والانفعال

ثالثا: ان معظم ردود فعل العالم الاسلامي لخطاب البابا اتسمت بالتسرع والانفعال والحملات التي تصل الى حد مصادرة الفكر. فعلي سبيل المثال تم قتل راهبة في الصومال وتمت مهاجمة بعض الكنائس ورفعت لافتات تدعو الله الى لعن البابا. بل ان شيخ الازهر صرح ان البابا «سكت دهرا ونطق كفرا» في لقاء جمعه مع الانبا يوحنا قلتة ممثل الكاثوليك في مصر. بالاضافة الى ذلك فلم تقبل معظم الدوائر الاسلامية اعتذار الفاتيكان عن سوء فهم خطاب البابا والاعراب عن الاسف لما اثاره الخطاب بل ان البابا قال ان الاقتباس لا يمثل ايمانه الشخصي. ورغم ذلك يريد البعض ان يقدم البابا اعتذارا خطيا عن الخطأ الفادح الذي ارتكبه. والتساؤل هنا هل يجب اجبار شخص ايا كان على تغيير رأيه اذا كان مختلفا معك؟ قد تكون قناعة البابا ان مفهوم العنف والجهاد في الاسلام تحتاج الى مراجعة. الا تجب الاستفادة من ذلك ويقوم علماء المسلمين بتوضيح الامر. الم يكن من الافضل توجيه الجهود والحملات لتقديم ايضاح مفصل مؤيد بالادلة ينقد قناعة البابا بدلا من المظاهرات والاصرار على الاعتذار، وعلى سبيل المثال وحدث الاعتذار نتيجة الضغط وليس الاقناع، اعتقد ان تلك النتيجة هي هزيمة وليست انتصارا. الحجة يجب ان تقارع بالحجة وذلك تطبيقا للاقناع «وجادلهم بالتي هي احسن».

فن ادارة الازمات

رابعا: لم يستفد العالم الاسلامي من ادارة ازمة الرسوم الكارتونية حول النبي محمد في الصحف الدانماركية. ان فن ادارة الازمة يتأتى من خلال استخدام وسائل الاقناع بدلا من الضغوط والترهيب. هل اثرت تلك الرسوم في عقيدة المسلمين؟ هل غيرت من رأيهم في نبيهم؟ لم يحدث ذلك. وهكذا فان تصريح البابا يجب الا يؤثر على عقيدة المسلمين ما دام هناك ايمان في قلوبهم واساس يبنون عليه ايمانهم. ان افضل اسلوب لمواجهة النقد والهجوم على الدين هو استخدام العقل والقلم لاقناع الاخر او التوضيح. اعود الطلبة الذين أدرّسهم في الجامعة على تدعيم وجهة نظرهم بالادلة وبدون ذلك فلا تعد مقولة يعتد بها. ان فن ادارة الازمة في قضايا الفكر يكون من خلال وسائل الفكر اما الازمة العسكرية فالرد هو بالمواجهة العسكرية. فاذا اعتدت بلد على اخرى واحتلت ارضها فان الدفاع عن النفس من خلال السلاح هو الوسيلة المتعارف عليها اما مواجهة الهجوم او النقد الفكري فتكون من خلال الحوار والنقاش.

هشاشة مفهوم حوار الاديان

خامسا: عكست تلك الازمة مدى هشاشة مفهوم حوار الاديان ويجب استبدال ذلك بحوار الثقافات. اعتقد ان حوار الاديان يرتبط في الاذهان بالتقريب من الاديان وهو من الاستحالة بمكان. كل فرد مؤمن بدينه وهناك اختلافات جوهرية من الناحية اللاهوتية بين الاديان السماوية ولا يمكن تجسير تلك الفجوة اللاهوتية حتى ان المذاهب المختلفة داخل الدين الواحد تحتوي على خلافات عميقة بينها. وبالتالي فصرف الاموال والاوقات والجهود حول حوار لن يؤد الى نتائج بناءة يجب ان يتوقف فورا. ومن الاجدى توجيه الطاقات الى حوار الثقافات من خلال النقاش حول القيم المشتركة بين الاديان والثقافات الموجودة في العالم ومن خلال تلك القيم يمكن بناء عالم يسوده التعايش والاحترام المتبادل.

الدين والسياسة

سادسا: اثارت تلك الازمة قضية العلاقة بين الدين والسياسة. في وجهة نظري اقحام الدين في السياسة يؤدي الى حزازات وسوء فهم وتمييز ويضع المساواة محك الاختبار اليومي. ذكر الرئيس بوش ان هناك بعض الاسلاميين الفاشيين وليس الفاشية الاسلامية كما ذكر البعض وان كانت هناك انتقادات عليه لكن لم تكن بحجم الانتقادات التي وجهت الى بابا الفاتيكان. ان الجمع بين الدين والسياسة معا وضع البابا في وضع حرج ولو كان سياسيا عاديا ولا يحمل الصفة الدينية لكان رد الفعل قد اختلف. ان مخاطر الذين يطالبون بادخال الدين في السياسة كبيرة ولا تحمد عواقبها. ان جعل القيم الدينية حاكمة للاطار العام للنظام السياسي لا غضاضة عليها ولكن ربط كل شيء بالدين وان الدين يتناول كل التفاصيل للحياة السياسية هو المشكلة بعينها. لا بد من ابعاد الدين عن السياسة. ان اشكالية الدولة الدينية لا تزال تمثل معضلة يجب حلها والتعامل معها. بالرغم من ان جورج بوش تحدث عن الاسلاميين الفاشيين فان النقد الذي وجه له كان بالقليل مقارنة بالنقد الذي تعرض له بابا الفاتيكان. والسبب الرئيسي ليس لان البابا يترأس دولة الفاتيكان ولكن لانه يترأس الكنيسة الكاثوليكية. لا بد من الفصل بين الديني والسياسي. وليس معنى ذلك ان استبعد القيم الدينية التي تشكل الاطار العام لنظام الحكم ولكن عدم تفصيل الدين في قواعد قانونية. لان ذلك سوف يؤدي الى مصادرة حرية الفكر. من جهة اخرى لا بد من عدم طرح القضايا الدينية للنقاش امام الرأي العام. يجب مناقشتها في دوائر مغلقة ومتخصصة حتى لا يحدث سوء فهم وتجريح المتمسكين بدينهم. ان احد انتقاداتي على خطاب البابا هو انه ناقش معتقد الاسلاميين امام الإعلام.

مفهوم العنف والجهاد

سابعا: ذكر البعض ان رد الفعل العنيف غير مرغوب فيه ولكنه متوقع. وهنا اتوقف للحظة للتساؤل لماذا نتوقع العنف من بعض المسلمين اذا كان الدين الاسلامي هو دين التسامح والمحبة؟ لماذا اهدر الخميني دم سلمان رشدي عندما اصدر كتابه «آيات شيطانية» ولماذا طرد على عبد الرازق من منصبه في الازهر بعد اصداره كتاب « الاسلام واصول الحكم» ولماذا صدرت احكام بتكفير طه حسين عندما اصدر كتابه «في الشعر الجاهلي» ولماذا قام البعض بالتلويح باستخدام العنف وارتداء ملابس الذين يقومون بعمليات مسلحة ضد المدنيين؟ ولماذا اعتبر الشيخ الغزالي ان قتل فرج فودة لانه انتقد الاسلام هو تنفيذ لاحكام الاسلام؟ هناك حاجة لمراجعة مفهوم الجهاد في الاسلام وبعض القضايا الخلافية التي تثير مخاوف غير المسلم. على علماء المسلمين ان يكونوا نظرة واحدة حول ذلك المفهوم حتى يقضوا على سوء الفهم والتطبيق الخاطئ للاسلام حتى لا يدعوا للناقدين اي باب للدخول منه.

الخطاب في الميزان

ثامنا: ان للبابا مواقف ايجابية فيما يتعلق ببعض القضايا الهامة. فقد طالب بوقف فوري لاطلاق النار في لبنان في الوقت الذي وقف العالم الاسلامي يتفرج على ما يحدث. وقد ندد بالعنف الذي يتم في العراق وطالب بالصلاة من اجل السلام في الشرق الاوسط. لا يجب نسيان تلك التصريحات والمواقف الشجاعة لمجرد انه ارتكب خطأ.

النبي ليس في حاجة للدفاع عنه

عاشرا: لا بد من التركيز على القضايا التي تمس حياة الناس. الم يكن من الاجدى الاهتمام بتلك القضية ومحاولة تجنب من يموت لان حق الحياة هو الحق الاساسي للانسان؟ ان اكثر التوقعات تفاؤلا من جراء تلك الحملات والمظاهرات واللقاءات والقتل هو اعتذار البابا والاعتراف انه اخطأ. ما الفائدة التي ستعود على العالم الاسلامي والاسلام من جراء هذا الاعتذار بالمقارنة بالدفاع عن حق الانسان في الحياة؟

خلاصة القول

في النهاية أود ان اقول بأن خطأ البابا انه اثار قضية دينية امام الرأي العام وكان من الاحصف مناقشتها في دوائر مغلقة مع متخصصين في مجال الاديان. والتحفظ الثاني هو انه شخصية دينية لها تأثير على الملايين وبالتالي كان من المتوقع ان يثير الحديث عن الاسلام حفيظة المسلمين. ولكن للانصاف لا بد من الاشارة الى ان العالم الاسلامي في معظم ردوده على الخطاب قد تميز بالتسرع والانفعال وعدم الحكمة والتزيد. ان فن ادارة الازمات يتميز بالضعف في العالم الاسلامي. كان على العلماء المسلمين ان يناقشوا البابا في افكاره ويرسلوا اليه ما هو الصحيح حول النبي وليس الضغط والحملات لاجباره وحتى ان لم يكن مقتنعا بتغيير رأيه. على علماء المسلمين ان يراجعوا مناقشة مفهوم الجهاد حتى لا يجد العنف مكانا له من قبل بعض التيارات التي تدعى انها مسلمة وتستخدم العنف للدفاع عن الدين. لا بد من المجادلة بالتي هي احسن ومقارعة الفكر بالفكر. وقد صدق الاستاذ عبد الباري عطوان عندما ذكر في نهاية مقالته ان التعبير عن الغضب والدفاع عن العقيدة والتصدي للاساءات والمسيئين كلها امور مشروعة يجب ان تتم بطرق حضارية بعيدا عن القتل والحرق والانفعالات غير المسؤولة. وهو ما سلطت الضوء عليه وفي مقابلة تلفزيونية اتهمني البعض انني ادافع عن البابا واتحامل على المسلمين. ما حاولت القيام به هو عرض وجهة نظري وليس لدي اي تحيز مع البابا لانني لست كاثوليكيا ولست ضد المسلمين لانني احب الجميع ولدي من الاصدقاء العديد من الاخوة المسلمين. ولم يكن الدين في يوم من الايام مؤثرا على علاقاتي مع الاخرين. فالتعامل مع الانسان على اساس انسان خلقه الله. هناك ضرورة لحوار الثقافات الذي يناقش القيم المشتركة بين الاديان المختلفة لبناء مجتمع عالمي مبني على التعايش والاحترام المتبادل.

انني انادي دائما بالتعايش السلمي بين الشعوب وضد العنف على طول الخط ولا يوجد اي تبرير من وجهة نظري لاستخدام العنف في التخاطب مع العقل.

* باحث بجامعة لندن ميتربوليتان البريطانية